بسم الله الرحمن الرحيم

جاك نيرنك يتمنّى إهداء هذا الكتاب لوالديه والأصدقاء المسلمين:

مندج بامبا، منصف بوبكر، مراد سقاني، وعبد الناصر عزوز.

طارق رمضا يود إهداء هذا الكتاب ترحماً على بيار دوفريزن (صديقي الذي غمرني بلطفه وعلّمني إياه، كما علّمني التصرف باعتدال بالإضافة إلى الصرامة والحنان، كما يود إهداءه إلى مونيك يوفير لاجيي التي غمرته بالدفء والحضور الدائم.

إلى ميشال مورينو (المرافق في الطريق، صاحب القلب النابض والذكاء الحادّ).

وإلى كل من يرفض البساطة والكاريكاتير.. مهما كانت.

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

من أجل حوار صريح ومفتوح

إلى مواطني أطفالي

إلى الطبقة السياسية الفرنسية بصفة عامة.

إلى سيسيليا ونيكولا ساركوزي بصفة خاصة.

obeikan.com

obeikan.com

تمهيد

*** أسئلة**

هذا الحوار ليس حوار أديان، ولا عملية تكديس لأفكار مبعثرة ومتنافرة.

عندما قابلت الأستاذ جاك نيرنك كانت لدينا متطلبات واهتمامات مشتركة، من جهة إنجاز عمل بيداغوجي مفتوح للجمهور (أي كل فئات القراء)، ومن جهة أخرى السّهر على عدم نسيان أي موضوع حسّاس خاص بالإسلام والعالم الإسلامي المعاصر.

من أجل هذا قام الأستاذ جاك نيرنك، الأستاذ والباحث المحنّك، الرجل السياسي، والكاتب المرموق، بتقمّص شخصية المثقف والصحافي (بمساءلتي) وهذه غاية لعبتنا، مقابلتنا أولاً، ثم تحقيق الهدف من هذا الكتاب بعيداً عن مواقفه الشخصية، يوجه لي الأسئلة، خاصة بخصوص المسيحية (التي أثارت جدلاً لدى رجال الدين)، وتنوع بتياراتها الفكرية، وتنوّع حضارتها، بالإضافة إلى آفاق تاريخها الثري.

الفصول الأولى سوف تعالج التاريخ، العقيدة، والروحية، والتطبيق على أمل تقديم صورة واضحة بخصوص المعطيات الفعلية.

بداية من الفصل الثالث سوف نقوم بمناقشات في العمق بخصوص الموضوعات الحالية:

موضوع المرأة، الشريعة، الفلسفة الغربية والفلسفة الإسلامية، لننتهي بالوجود الإسلامي في الغرب وتحدّيه له.

كل هذه الموضوعات هشّة جداً، ولكنها مهمة جداً بطبيعتها، وإذاً لم نفتح هذا الحوار بتعقل، سوف تتسع الفجوة بيننا، فجوة سوء التفاهم الذي يفصل بين الغرب والعالم الإسلامي، ويزداد التنافر بصفة خطيرة بين المواطنين المسلمين والأوروبيين والأمريكيين.

obeikan.com

* أجوبة

سوف يجد القارئ في الكتاب عدداً كبيراً من الأجوبة. لا تمثل هذه الأجوبة الإسلام، كما لا تمثل كل المسلمين، توجد قراءات أخرى ذات صبغة تقليدية أو حرفية، بعيدة عن واقع ممثليها أيضاً: من الضروري الانتباه إلى تعدد التأويلات التي تمر على المجتمعات الإسلامية في المشرق والغرب إذاً أردنا تجنب الرؤية الكاريكاتورية للواقع، أو الوقوع في المبالغة المفرطة الخادعة. مع ذلك فالمسلمون في الغرب يعيشون ثورة ثقافية مستمدة من شخصيتهم ومسؤولياتهم التاريخية المتأججة بسبب الفرص والتحديات الجديدة التي تواجههم، فهم مواطنون لدول ديمقراطية، استفادوا من تربية وثقافة متقدمة، يتمتعون بالحرية، وحرية النقد، مع تمسّكهم بعقيدتهم وأخلاقهم وتقاليدهم، فالعديد من الرجال والنساء من الجيل الجديد برزوا على الساحة الاجتماعية والسياسية في الدول الغربية.

obeikan.com

obeikan.com

الأجيال الجديدة

* أوروبة تغيّرت، وفرنسة أيضاً

ومع ذلك لم يكن الغرب يتوقع نهوضهم بهذه السّرعة، وبهذا الكم.. وبهذه الحرية. محافظين أو غير محافظين، فقد تم حشرهم في زنزانة اسمها (هم من أصول عربية)، وتم تصنيفهم ضمن علامة مسجلة (من أصل مهاجر) بمجرد إحساسهم اليوم بأنهم أصبحوا مواطنين عاديين كغيرهم قامت القيامة وعَدَّ المواطن الأوروبي ذلك تحدّياً لمجرد أنهم أرادوا الخروج عما كان عليه آباؤهم وأمهاتهم الذين كانوا مجرد عمّال أجانب منعزلين عن غيرهم ومستسلمين أيضاً.. يعيشون في عزلة تامة، يرفضون الشراكة، ويعارضون الجمعويّة الاجتماعية، والعنصرية والتّفرقة (في العمل والسّكن والتربية.. إلخ)، تحرك الجيل الجديد وخرج من مساكنه البائسة ثقافياً واجتماعياً، ذلك الوسط البائس الذي حشرهم فيه السياسيون عشرات السنين. تحرر هذا الجيل واقتحم الميدان بقوة. فهيمن الخوف والقلق على المواطن الأوروبي.

ماذا يريد هؤلاء الأجانب؟ ومن هم؟.. وعن أي شيء يبحثون؟

أما المواطن الأوروبي، ومن بينهم المتعقّلون من المواطنين الفرنسيين، فقد أحسّوا أن دولتهم قد تغيرت. كل هؤلاء الأجانب، هؤلاء العرب، والأتراك، وهؤلاء المسلمين، وهذا الإسلام الذي يزداد الحديث عنه

يوماً بعد يوم.. مع الإحساس المتزايد، إحساس صادق بأن أصحاب البلد أصبحوا يشعرون بالغربة في بلدهم. وجاء إحساس آخر يتسم بالهشاشة لينضم إلى الإحساس بالخوف واختلال الأمن الذي يسيطر على الأجواء:

من اليوم فصاعداً سوف لا نسمع إلا صوت هؤلاء المسلمين الذين يتكلمون لغتنا ويقولون الحقيقة التي تطمئننا، هؤلاء الأجانب أصحاب الأسماء الأجنبية، فهم يشبهوننا في كل شيء، شكلاً، وعقلاً ولباساً، صحيح أنه يمكن أن لا يكون لهم أي تمثيل، ويكونوا مجرد لعبة سياسية يستغلها البعض، لعبة ذات صبغة انتخابية وسياسية. هذا لا يهم.. المهم أنهم يوحون أنهم قدموا من تلك (الأوساط) ويتحدّثون من الدّاخل، ولا يختلفون في الصورة عنا، هم (الآخر) الذي اندمج وأصبح مثله مثلنا.. أبيض البشرة، هناك احتمال للنصر.

بالرغم من ذلك.. ملايين وملايين المسلمين من الجيل الجديد لا يشعرون بالانتماء إلى هذا المستقبل، فهم يحترمون القانون العام، وهم مواطنون فرنسيون مثلنا غير أنهم لا يتنكرون إلى أصلهم من أجل قبولهم من طرفنا في البلد المضياف ومجتمعهم الجديد، ومن جهة أخرى فهم يعتقدون أن التعددية التي يطالبونهم بالانخراط فيها ما هي إلا دعوة للاندماج والتنظيم فقط، لكي يصبحوا أوروبيين والتّواري خلف المجتمع الجديد.. يجب التخلّي عن هويتهم، بعد عشرات السنين من الحضور الفعّال والمسهم في بناء المجتمع، يطالبونهم بإثبات أنهم فعلا اندمجوا.

* مسؤوليات مشتركة

مجتمعان متواجهان وجهاً لوجه، سنين من التاريخ وسوء التفاهم، مع أن هناك أماني مشتركة، ومع ذلك فهذا لا يصغي للآخر، المسؤوليات والمجهودات مشتركة أيضاً، فالمسلمون يجب أن يدركوا مدى خوف الآخرين منهم، أن يشعروا بهشاشة أحاسيسهم، تلك الأحاسيس الصادقة والأسئلة التي تراود المجتمع الغربي. يجب عليهم التعرّف إلى هذا المجتمع، وإلى تاريخه، وثقافته ومحاولة تعريف أنفسهم أكثر فأكثر للآخر. أما الأوروبيون فيجب عليهم أيضاً دراسة تاريخ الآخرين، وعاداتهم وتاريخ وعادات كل من حولهم؛ لأن المجتمع التعدّدي يطالب كل فرد ببذل مجهود لاكتساب المعرفة، ليتمكن من تصور تشعّب المحيط الذي قدم منه هذا الغريب الذي يعيش معنا، الذي سيشاركنا الفضاء الذي سنبني فيه مستقبلنا المشترك.

الغاية من هذا الكتاب هي الإسهام في هذا المجهود للتعارف المتبادل: التكلم عن العادات والأحداث والتمثيل، والاستفسارات المختلفة، وديناميكيات العمل الجديدة.. كلها ضرورية اليوم لنتصور المستقبل بكل سرور، مجتمعاتنا تطالبنا بالتجرد من قيَمنا الشخصية، ومنطقنا الشخصي وأنظمة مراجعنا، من الضروري أن نجنح إلى السلام، وأن نحترم خصائص الآخرين واختلافاتهم، التربية والحوار هما الصّراط الذي يوصلنا إلى الأفق.

* الأسئلة نفسها تتردد دائماً

بالنسبة للتفكير الغربي الذي يهتم بالموضوعات المرتبطة بالإسلام لوحة (العقدة) يمكن تصورها بسرعة، هناك قائمة بالأسئلة، الأسئلة نفسها التي تتردد دائماً، هذه الأسئلة هي التي تشكل المشكلات القائمة، كل شيء يسير وكأنه يتجدد من قرن إلى قرن، ومن عشرية إلى أخرى، ومن سنوات إلى أخرى، الأسئلة نفسها تراود الجمهور.

الإسلام.. والعنف، والديمقراطية، والعلمانية، والمرأة، والحجاب، والحقوق الإسلامية والعقوبات (الحدّ) والشّريعة.. هذه هي الموضوعات المعروفة.

في كل مرة تتفاقم هذه المشكلات وتولّد غلياناً وشعوراً هستيرياً عندما يتم استعراض هذه المسائل، عند مطالبة الناس بالهدوء، والتّريّث، والتركيز، والإصغاء إلى الآخر، في هذا الوقت بالذات، تشتعل الحواس، وتنتفض العقول، ويخيّم الصّمت. لا يصغي أحد للآخر، ولا ينظر أحد للآخر، حتى الشروحات المنطقية تختفي، والمتعقّلة منها لا ينظر لها إلا عبر موشور الخطر، موشور النّفاق والمناورة. فالثقة غائبة.

من الصعب معرفة من هو الذي لا يثق في الآخر.. والنتيجة واحدة: والحقائق متضاربة، ولا أحد يصغي إلى الآخر، والرفض المتبادل يصبح سيد الموقف. كل شيء يصبح معقولاً، وعادلاً وشرعياً، ومستعجلاً، للوقاية من الآخر (الخطير) المتسلّل الذي تطبق عليه معادلة دون مجهول: إذاً كان لا يشبهنا تماماً، فهو إذاً عكس ما يدّعي أو عكس ما يبدو، فهو

يدّعي (المواطنة) فهو إذاً (اجتماعي) إذاً ادعى أنه (إصلاحي) فهو (أساسي)، إذاً ادعى (الحرية) فمعنى ذلك (الإكراه).. لذا فالحوار مستحيل والطريق مسدود.

* فرنسة الطّرشاء

فرنسة هي عبارة عن مختبر عظيم لتجربة التشنّج، والتجاهل الجماعي، إن النقاشات التي دارت عبر السنوات الأخيرة (2002-2004) حول الحجاب هي نقاشات مدارس، بعد أن هدأ الوضع منذ أكثر من عشر سنوات (1990-2002) تحركت المكنة من جديد، وجرفت معها كرة من الثلج، أي كل العقول المتعقّلة. بدءاً بالمواطن الساذج حتى رئيس الدولة، أصبحت أغلبية الفرنسيين فجأة ترتجف رعباً وخوفاً من الخطر البعيد الذي يدهمهم: البنات المتحجبات، والتجمّعات الإسلامية، والتّطرف الإسلامي والإسلاميون... لقد أصبحت العلمانية في خطر.

بموجب نداء رسمي، قامت بعض اللجان الرسمية وغير الرسمية بمحاولة إقناع الناس بأنهم يحاولون الدفاع عن فرنسة بموجب قانون خاص (بالرموز الدينية)، انضمت الآراء شيئاً فشيئاً إلى هذه الفكرة، إلى أن تأكد ذلك وأصبحت الأمور واضحة.

هذا القانون سوف يكون قانون الأمن والأمان، قانون الصرامة (قانون العلمانية)، العالم كله ينظر إلى هذا بتعجّب، وأحياناً بشيء من الغيظ، ينظر إلى هذه (الهستيريا الجماعية) التي جرفت معها

كل الكتلة السياسية وكأنها دخلت في مزاد كبير، مزاد خطير، خطير جداً، قليل من الناس لم يفقدوا صوابهم: كل التوقّعات تشير إلى أن كل الشعب يساند هذا القانون، وعلامات العنصرية بدأت تغزو الشارع، والعربي هو المستهدف بالطبع والمسلمون بصفة خاصة.

انضمت وسائل الإعلام إلى هذه المعركة المصيرية وبكل سرور بالطبع.. لقد سمع الجميع أصواتاً تردد أن الجمهورية علمانية، ولكنها مع ذلك اجتماعية، واجتماعية جداً، ولا يمكن أن تكون علمانية فعلياً إلا إذاً تمسكت ببعدها الاجتماعي، لقد تجاوزوا كل هذا وادعوا أن (التجمّع الاقتصادي) والتجمعات السكنية المعزولة، والعنف، وعلامات الرفض الاجتماعي (حتى العنصرية ضد اليهود في الضواحي) كلها بسبب السياسة الاجتماعية والسكنية، سواء في فرنسة أو غيرها، والكل يتّهم الجالية الفرنسية من أصل (عربي مسلم) الكل يتّهم هؤلاء، ولا يتردّدون في تكرار ذلك.

ولا شيء تغيّر، فالصمت هو سيد الموقف. صمت بلا نهاية، أصبح النّقاش في العمق مستحيلاً. حتى الفقرات التي وردت في تقرير (ستاتي) تشير إلى البعد التربوي، والاجتماعي، والإنساني للعيش معاً، كل هذا تم تجاهله أو نسيانه.. هذا التجاهل والنسيان أجبر أربعة عقلاء على الاعتقاد أنهم وقعوا في لعبة كبيرة اسمها السياسة ويقولون ذلك بكل صراحة، ولاعتبارات انتخابية استمر الكثير من السياسيين في عمليات المزايدة: وسائل الإعلام أيضاً لها دور كبير في هذه اللعبة؛ إذ تثير الرعب والخوف في نفوس الشعب إلى أقصى اليمين، والخطب

كلها تصبّ في مجرى واحد ألا هو حماية الهوية الفرنسية، والثقافة الفرنسية، والحياة اليومية، والمدن الفرنسية والديمقراطية بصفة خاصة، وأمام هذا المنعطف انهالت الأسئلة: ألا يوجد هنا أو هناك مواطنون على استعداد لتحدي الأحداث والتمسّك بالتعددية، والرجوع إلى الحوار، والتحلّي بالهدوء، وتهدئة الأجواء وتحكيم العقل.. دون تنازلات، ولكن بتفتّح، ودون استسلام أيضاً وباحترام متبادل.

هل أنصار هذا الحوار موجودون؟ وهل يمكن ذلك؟ وهل نستطيع ذلك؟

* وإذاً كانت الأغلبية الفرنسية مخطئة؟

إنه من المؤسف أن نشاهد تطور هذه الأحداث بفرنسة وأوروبة، هذه الأحداث تمسّ الجالية الإسلامية بصفة خاصة، مع ذلك تبقى هذه الأحداث بسيطة، هناك ثورة خامدة ولكن تقلباتها عميقة وذات عواقب خطيرة، نظرة الشباب المسلم لكل ما يحدث حوله بدأت تتّضح شيئاً فشيئاً، بدا ذلك جلياً في أوساط المجتمع، في مواقع العمل، في المدرسة، في الجامعة، في الأوساط الثقافية، ووسائل الإعلام، والنوادي الرياضية وغيرها.

هذه النظرة الحديثة استقبلت بشيء من الاعتدال والتعقّل، مع العلم أن هناك خوف من (التجمّعات) والجمعانية كما يتصورها المجتمع الفرنسي، ولكن عكس ما يتصوره المجتمع الفرنسي هو ما يحدث: فالمسلمون كما قلنا بدؤوا يخرجون من سكناتهم الاجتماعية البائسة، بدؤوا يظهرون على الساحة لإسماع أصواتهم، وبدؤوا يطالبون

لأن حقوقهم مهضومة باستمرار، بدأت المكنة تتحرك، فالمعركة طويلة، صعبة، مثيرة ولكنها بدأت: النساء والرجال يطالبون بمواطنتهم وانتمائهم إلى فرنسة واحترامهم من أجل ذلك، سواء كانوا يمارسون شعائرهم أم لا، فهم يرفضون أن تستمر مطالبتهم (بالاندماج) ووصفهم (من المهاجرين) وغير ذلك من الأوصاف المعتادة. لقد ولّى كل هذا حتى لو كان هناك بعض (العرب أو المسلمين) الذين يقبلون المشاركة في لعبة هذا الحزب أو ذلك، فهذا شأنهم، فهم أحرار في تصرفاتهم ونقدهم.

إنك مخطئ لو تصورت أن أغلبية المسلمين اليوم يؤمنون بالجمعيات مثل (SOS عنصرية)، أو (لا عاهرة ولا مستسلمة) لأن ما يطالبون به لا مبرّر له، وغير شرعي.

بالعكس فالمشكلة متعلقة بموقف من يتكلم أو من يتكلم باسم سكان الضواحي: عبر عشرين سنة، أي منذ انتفاضة العرب، شاهدت المجتمعات الإسلامية كيف يتم استغلال قضيتهم من طرف ممثليهم المجندين لخدمة هذا الحزب أو ذاك، أو لخدمة مصالحهم السياسية الشخصية بدل من المطالبة بإجراء إصلاحات اجتماعية.

وفي النهاية ماذا تبقَّى من هذه المسيرة؟ ماذا تبقَّى من كل هذه التعبئة وكل هذه الحفلات؟ لم يتبق إلا القليل؟ لم يبق إلا نجاح بعض العرب الانتهازيين، الذين اندمجوا اندماجاً كلياً، أو تواروا خلف المناورات السياسية.

obeikan.com

المهم هو (رصيد الودّ) الذي يحصلون عليه من وسائل الإعلام لأنهم يعتقدون أنهم يمثلون سكان الضّواحي، لكن هذا لا يمنع ظهور الحقائق إلى الواجهة، واكتشاف الفشل العميق، الفشل الدائم والمستمر.

يجب إعادة النظر في وسائل التدخّل هذه جملة وتفصيلاً. يجب فرض نماذج للسلوك الصحيح، وإعادة صياغة هؤلاء الممثلين المزّيفين، التدخل من فوق ومخاطبة هؤلاء الممثلين المزيفين (الذين يرعون مصالح الأحزاب)، من اليوم فصاعد يجب الاعتماد على سياسيين مقربين والعمل مع الآخر، ومع المجتمع، يجب المراهنة على الديمقراطية، الديمقراطية التعددية وإقامة مناطق قانونية وترسيخ الثقة بين الناس، فالإسلام ليس له علاقة بالتمزّق الاجتماعي، والدّين لا ذنب له في ذلك كما يبدو ذلك على الواقع، ومع ذلك يبقى عمل الإعلام اليومي الذي ينتهي في النهاية بإعطاء صورة سلبية عن الإسلام والمسلمين، قد يؤدي ذلك إلى عواقب خطيرة بخصوص تمثيل المسلمين المهمّشين والصورة السيئة التي رسموها عنهم، لا يمكن التمادي في إلقاء الخطب الجماعية الثقيلة التي تشكك في الدين وأتباعه، وتعتقد أن هؤلاء سوف يتفتحون دون تشنّج ولا إحساس، ومع ذلك، يبدو أن هناك ديناميكيات واعدة تبشّر بمستقبل جميل يأتي من هؤلاء السكّان الذين لا نعيرهم أي اهتمام اليوم، ونتّهمهم بأسوأ الأشياء، هؤلاء المواطنون الفرنسيون الذين يطالبون بتمسكهم بدينهم الإسلام ينجزون اليوم عملاً جباراً من الداخل، أصواتهم أصبحت مسموعة لأنه لم يتضح في أي وقت أنهم يستغلون الضواحي لأغراض سياسية، فالعمل الذي تم إنجازه أثناء

عشرين سنة بدأ يعطي ثماره، وبدأ جيل جديد من المواطنين يظهرون إلى الواجهة بعيداً عن نار وسائل الإعلام، وقريباً من الواقع في الميدان، يجب الاعتماد عليهم، رجالاً ونساءً طوعاً أو كرهاً.

*** معاداة السامية**

قد نسمع كثيراً اليوم أن السكان (العرب والمسلمين) هم المسؤولون عن ظاهرة معاداة السّامية المتنامي والقادم بقوة.

يبدو أن هذه الادعاءات المختصرة والتحاليل الخطيرة بدأت تحظى بقبول الفرنسيين وبعض الأوروبيين، هناك الكثير من المثقفين اليهود وغير اليهود الذين بدؤوا يغذّون هذه الادعاءات.

في نص أثار الجدل مدة أربعة أشهر متواصلة، قمت بمعاتبة هؤلاء المثقفين على تغذيتهم دون تعقل لهذه الظاهرة التي أصبحت عامة في المجتمع الفرنسي، فَتَمَّ نعتي (بمعادٍ للسّامية) دون أن يتقدم أحد بشكوى ضدي، الكل هاجمني شخصياً، لكن لم ترد أي إجابة بخصوص عتابي، للعلم أن النص الذي كتبته لم يثر أي ضجة في الضواحي ولا أي انفلات.. لأنه لا يكتسي صبغة معادية للسّامية ولست مضطراً لتقديم اعتذار على ذلك كما طلب نيكولا ساركوزي أثناء المناظرة التي أجريتها معه، لذا لنسأل ونتساءل: من الذي أثار اليوم تغذية ظاهرة الخوف من العرب والمسلمين؟ من الذي يغذّي هذه الظاهرة؟، ومن الذي يندّد بهذه الظاهرة؟ ومن الذي يحرّض على هذه العنصرية الخفية ضد الإسلام؟

إن أغلب المثقفين الذين أشرت إليهم (حديثي العهد) (ليست هناك قائمة) ومواصفات خاصة لمثقفين معينين ينتمون إلى الجالية اليهودية يتحملون مسؤولية ما يحدث في فرنسة، إضافة إلى ذلك كل الأحاديث التي تصدر عن مسؤولي (CRIF) خطيرة ومخيفة مع أن الإحصائيات تشير إلى انخفاض في العداء إلى السّامية. يجب معارضة كل من يعادي السّامية، وكل من يتحلى بالعنصرية، وهذا هو ما فعلته وأفعله دائماً، ولكن لا يجب السكوت على بعض المتهاونين الذين يقومون بشحن مجتمع كامل بغرض جرّ الطبقة السياسية على السكوت على سياسة إسرائيل اليمينية المتطرّفة، أغلب الممثلين المسلمين للجالية الإسلامية أظهروا أنهم أصبحوا يتمتّعون بالنضج الكافي والتحكم في النفس لمواجهة الظروف الصعبة، والسلوك غير الأخلاقي لبعض الشباب المنحرفين الذين يبتعدون كل البعد عن الأخلاق والفضائل الإسلامية، يجب التنبّه إلى ذلك لأن ذلك فيه كثير من الإيجابيات التي تخالف الصورة السيئة التي رسمها المسؤولون السياسيون ووسائل الإعلام.

*** الساحة الدولية**

لقد ساءت الأوضاع بعد (11 سبتمبر)، هذا صحيح ولا شك فيه، صحيح أيضاً أن صورة العالم الإسلامي على المستوى الدولي ليست بالجميلة، خاصة بعد التفجيرات التي ضربت الولايات المتحدة، وغيرها، كل هذه الأحداث زادت من تشويه صورة الإسلام القاتمة. الحرب ضد الإرهاب، والتفجيرات، والإنذارات المتجددة، والرؤية المتزايدة، والإجراءات الأمنية المطبقة على كل السكان... كل هذا

له أثر حاسم على ضمير المجتمع، إن الحضور المتزايد للمسلمين في أوروبة والغرب، وطبيعة تعاليم دينهم يخيف الغربيين، والإسلام أصبح (مشكلة) قائمة، غامضة وغريبة، تتجمع فيه كل أنواع الأحلام والهلوسة، أصبح رمزاً للتّنافر والتّصادم.

يجب أن نقوم في يوم من الأيام بدراسة حول هذا التطور العميق في التصوّر المخادع للإسلام.. لما في ذلك من أثر على الإسلام في المستقبل؟ ومع ذلك تبقى الصور العالمية التي تم رسمها عن الإسلام مخيفة، مما يدفع المسلمين إلى التحرك وقول أي شيء، وشرح الوضع والتنديد بكل وضوح، هذه هي مسؤوليتهم للأسباب الثلاثة الآتية:

أولاً: باسم ضميرهم واحتراماً لسيرتهم الدينية التي ترفض كل ما هو رعب.

ثانياً: لتطوير العقليات داخل مجتمعاتهم وخاصة عقليات المسلمين الذين يعتقدون أن التجمعات أصبحت من الضروريات والحوار بين المجتمعات ضروري ولا مفر منه.

ثالثاً: لتوضيح الأمر أمام المواطنين الذين يريدون فهم ما يحدث حولهم، وزرع الثقة في نفوسهم.

إن المواطن الغربي الذي يعيش مع المسلمين أصبح في حيرة وأسئلته صادقة ولها ما يبرّرها، مثل ما قلنا من قبل: ما هو وضع المرأة في الإسلام؟ وما هي الحدود؟ وظاهرة العنف والديمقراطية مثلاً؟ هل يمكن فعلا التعايش معاً؟ بوضوح هل يمكن التعايش مع الإسلام؟

obeikan.com

هذا الكتاب جاء ليسهم في شرح ذلك.

مع جاك نيرنك، تناولنا كل الموضوعات الحساسة والمعطيات الأساسية التي جمعتنا، هل يمكن العيش معاً؟ إذاً تحمّل كل واحد مسؤوليته وقام بتقديم الشرح اللازم لذلك، وإجراء الدراسات الوافية لمعرفة الغير باسم الضمير الإنساني، باسم العقيدة، باسم القيم الإنسانية، وباسم مستقبلنا المشترك، لابد من الوقت، ولا بد من إدراك أن العقلية من كلا الطرفين تتطور وتتطور ببطء، تتقدم وتتأخر أحياناً، وتنام أخرى، وتتشنّج أحياناً أخرى أو تنتفض، ولكي نتجنّب التصدّع بين الفئتين المتعايشة مع بعضها البعض دون معرفة الواحد للآخر فلابد من الالتزام القريب، الالتزام المتواصل، ولابد من البيداغوجية، والثقة المتبادلة.

*** المرأة**

من كل الموضوعات الحسّاسة، يبقى موضوع المرأة الأكثر إثارة وانفعالاً، والأسوأ فهماً، إن المرجع الإسلامي هو سبب كل التجاوزات، وكل المآسي، وكل الأشياء المرعبة.

الطلاق، العنف الحاصل بين الزوجين، والرّجم، وختان المرأة، والاغتصاب الجماعي بالضواحي... أمام هذه التقاليد غير المقبولة، من الصّعب تجاوز الاضطرابات، وإزالة الشكوك والتنافر.

لقد بذلت مجهوداً كبيراً للإجابة عن الأسئلة الواضحة التي طرحها الأستاذ جاك نيرنك بكل وضوح وواقعية متناهية، سوف يجد القارئ،

إن شاء الله، عدداً كبيراً من الشروحات حول هذه الأسئلة الشرعية تساعده على فهم كل التقلبات الحاصلة في العالم الإسلامي بما في ذلك في المجتمعات الإسلامية في الغرب.

لقد أدركت في السنوات الأخيرة أن الشرح لا يكفي.. لأن الانفعال بلغ ذروته، والحقائق متأصّلة، والصّمت المتبادل يخيّم على الموقف، كل هذا عمّق من الأحداث، وكثّف العقليات والثقافات حتى أصبح كل واحد يتهم الآخر بالهروب وعدم تحمل المسؤولية، وعدم الإجابة عن أسئلة الآخر. إغراق السمكة كما يقولون.

في يوم من الأيام بعث لي أحد المشاهدين مكتوباً أجبرني على التأمّل وإعادة النّظر في ما قلته في حوار عن الإسلام بصفة عامة وعن المرأة بصفة خاصة.. وهذا نصّه:

(للأسف، ما تتلفظ به من فمك وما تبيّنه من فروقات، يبدو غامضاً في أذن من يصغي إليك).

أعتقد أنه صائب، وصائب جداً، لذا فقد حان الوقت للمسلمين أن يبذلوا مجهوداً كبيراً للتعبير بصفة أفضل، ومن الضروري أيضاً أن يلتزم من يسمعهم بالإصغاء أكثر وأحسن والتزوّد أكثر فأكثر بالمراجع الصحيحة، والتحلي بالتعقّل وتكريس الوقت اللازم والبسيكولوجيا الخاصة بمواطنيهم المسلمين.

دون هذا الالتزام في الحوار، سوف لا نبلغ الهدف المنشود؛ لأن تبسيط الأشياء والكاريكاتوريات التي تسيء للآخر هي البشائر الأولى

للحرب الكلامية... قبل المواجهة الرمزية والحقيقية، كلنا، نعم وكلنا نتحمّل مسؤولية كبيرة.

لنفرض أن الحجاب في حدّ ذاته علامة من علامات تقييد الحرية، سواء كان مفروضاً أو بمحض إرادة صاحبته.. هل في رفضه تحرر للمرأة المسلمة؟ هل إكراه الآخر على اختيار (قيمنا) و(حريّتنا) على أنها الأفضل والوحيدة التي لها صيغة عالمية؟.. لنتصور إذاً أنه بهذه الطريقة سوف تكسب رهان التعدّدية ونستطيع العيش معاً، هذا شيء مذهل.

هل فقدنا أبصارنا إلى هذه الدرجة؟ هذه هي بيداغوجيتنا، وتبسيطنا للأشياء؟ وهل سنستمر في انتهاج هذه السياسة والتحاليل الملتوية؟

الأسئلة المهمة الخاصة بالمرأة، كل امرأة، والمرأة المسلمة بصفة خاصة، لا تتطلب أن تناقش رموزها، المهم اليوم هو احترام نزاهة الفرد واستقامته، واحترام حريته، وحقه في التربية والتعلم، وحقه في العمل، وحقه في مقاومة كل أشكال العنصرية حتى لو كانت وليدة التقاليد القديمة، أو وليدة المجتمعات المتحضرة التي تفوح برائحة الجنس وتسلّط الرجال، هذا هو ما يجب مناقشته، اجتماعياً وسياسياً.

أما اليوم هناك نساء متحجبات وغير متحجبات من داخل المراجع الإسلامية يقمن بعمل إصلاحي جبّار، الكل هنا بفرنسة يرفض رؤية ذلك ولا يريد سماعه، والنقاش بلغ ذروته من السّخافة بخصوص الرموز الإسلامية، حتى مجرد رؤية الحجاب عامل من عوامل التخلّف، وعامل من عوامل (استسلام المرأة المسلمة) إلخ.

هناك العديد من المسلمات، متحجبات وغير متحجبات يقاومن التفرقة، والعنف، ويرفضن الختان، كما يرفضن الزواج بالإكراه، ويلتزمن بالحصول على الحق في التربية وطلب العلم، والحق في العمل والمساواة في الأجور.

هذا النوع من الأنوثة غير موجود لأنه لا يلائم مطالب الغرب الذي لا تهمّه سترة الوجه، لذا كان من اللازم إصدار قانون خاص بالحجاب لحل المشكلات، المشكلات كلّها.. الكل يلتزم الصّمت أمام الكثير من الحقائق والمطالبات، وذهل المسلمون في أمريكة وآسية وأصابتهم الصدمة، أمام الإجراءات التي اتخذتها فرنسة.

كان من الأجدر دعوة الطبقة السياسية الفرنسية للتأمل في التجربة المغربية بخصوص شؤون المرأة، أثناء سنوات، كان التشنّج والانفعال سيد الموقف في النقاشات الخاصة بوضع المرأة وزواجها، كان كل من يتمسك بالتقاليد والعادات، والإسلاميون والحرفيون، يتهمون الغرب وفرنسة بالذات بالتدخل السافر لإجراء إصلاحات بخصوص المرأة.

أما الآخرون وأغلبهم ينتمون إلى الفرنكوفونية أو المُفَرنَسُون، فهم يكافحون من أجل حرية المرأة، ويرون أن الإصلاحات ضرورية، وهؤلاء على صواب، بخصوص التطور، لكنه من الواضح أنهم أساؤوا في بدء الحوار والطريقة التي انتهجوها، كيف كان بالإمكان مواصلة التقدم؟ كيف كان بالإمكان الحصول على الموافقة على إجراء إصلاحات في هذا الميدان الحسّاس الذي يمسّ الشرعية الإسلامية والسياسية للمسؤولين

عن هذا النقاش. لقد تم إعداد لجنة قامت بجمع ممثلين عن العائلات التي تمثل المجتمع المغربي. شيئاً فشيئاً وبعد التشاور، في الداخل، والعمل على احترام القيم الإسلامية، وعدم المساس بشعور الناس، والتحلي بالتعقّل والنّقد، تم إعداد المدوّنة، ثم تم مراجعة قانون العائلة وأجريت إصلاحات في العمق، وحصلت تطورات ملموسة تراعي حقوق المرأة، وقد تم مناقشتها وقبولها من طرف المتخاصمين المغاربة. تم كل هذا بهدوء، وتأنٍ ويبقى عمل كبير يتطلب الإنجاز ولكن المهم هو فك هذه العقدة المعقّدة.

أثناء مؤتمر أجري بالمغرب قريباً، تحت إشراف ورعاية السيد بوستّة المسؤول عن لجنة المدوّنة المغربية في سنة 2003، أفادني السيد بوستّة أن المشاركين تناقشوا، وأن الإصلاحات جارية، والجميع يعتقد أنها ثمرة النضج الصادق، إصلاحات ذات صبغة داخلية، ووليدة الضمير المغربي، فهذه التجربة يجب أن يُقتدى بها وفي فرنسة بالذات، يجب أن ندرك أن تطور هذه الإصلاحات يجب أن يشارك في إعدادها كل المشاركين في هذا المؤتمر وعدم فرض أشياء لا تتوافق مع الواقع على الميدان.

لكي تتقدم قضية المرأة، يجب أن لا تتكلم باسم المرأة، وأن لا نقدم تصورات غريبة عن تصوراتهن وآمالهن، يجب أن نتعلم كيف نواكب تطورهن، باتباع تعرّجات تعبيرهن ومطالبهن التي أصبحت أكثر دقة ووضوحاً، فهي لا تتلاءم مع ما سطّره الغرب بخصوص حرية الأفراد والأجسام، ولكنها متقدمة أكثر مما نتصور بخصوص مطالبهن

وحقوقهن، وحقهن في التصرف في أموالهن، وفي سلوكهن الاجتماعي، ومقاومة ظاهرة التمتع بهن وبأجسادهن فقط، يمكنهن تقديم اقتراحات مهمة في هذا المؤتمر بخصوص النموذج الذي تصبو إليه المرأة المتحضرة التي تتمتع بالحرية والثقة في النفس.

* منح مهلة قبل تنفيذ الحدّ

يا للهول لما سمعته يوم تلفظت بـ(منح مهلة) في التلفزيون الفرنسي.

(منح مهلة) قبل تنفيذ الرجم! كيف ذلك؟ بعض رجال السياسة ومثلهم من الأقلام الصحافية كانوا ينتظرون هذه الفرصة لإثبات (ازدواجية خطابي) كلهم تشبّثوا بهذه الكلمة... (منح مهلة)... يا للهول! (أترون أنه غير متحفّظ)، انهالت عليّ المقالات وتضاعفت التعليقات، وخيّم الصمت من جديد بخصوص العلمانية والحجاب أمام موقفي بخصوص الدفاع عن نظرية متخلفة ورجعية كما يعتقدون، وكأنهم لم يسمعوا أو لم يريدوا سماع ما قلت، شيء محيّر فعلاً.

أنا أزور باستمرار العالم الإسلامي، ومنذ أربع سنوات أطالب شفهياً وكتابة بمنح مهلة مطلقة قبل إقامة الحدود... الحدود كلها بما في ذلك الإعدام، لا يطبق ذلك في الدول الفقيرة كالسودان ونيجيريا فقط... بل يشمل دول الخليج التي تلتزم الصمت دفاعاً عن المصالح الغربية.

القرآن والسنّة يشيران إلى كل أنواع الحدود وشروطها، وقد تناقشت في ذلك مع زميلي جاك نيرنك بصفة مباشرة، يمكن للقارئ أن يتعرف

إلى موقفي (الذي أبديه منذ أكثر من 10 سنوات، كما أبديته أثناء آخر نقاش أجريناه سنة 1999).

معارضتي لإقامة الحدود ليس فيها أي شك، ولكن كيف يمكن تغيير العقليات في العالم الإسلامي؟ هل يجب تحكيم الضمير والتنديد بهذه الحدود والتذكير أنها لا تخص الغرب ولا فرنسة بالذات؟.

هل كان من المفروض كما اقترحه عليّ البعض الرد على الهجوم الماكر الذي فرضه عليّ نيكولا سركوزي بادعائه أن هذا الحوار لا علاقة له بالعلمانية (وهذا هو موضوع نقاشنا تلك الليلة)، وفوق ذلك فقد قام بالتهجّم على أفكار أخي، التي هي ليست أفكاري، بعد هذه الانتقادات السيئة التي لحقت بي بعد تلفظي بكلمة (منح مهلة) قبل إقامة الحدود، لم يبق سوى التطلع إلى الواقع وحث المسلمين في الغرب على تحمل المسؤولية واقتراح الحلول لتطوير العقليات بالعالم الإسلامي.

اليوم، الدول الإسلامية الغنية أو الفقيرة، تقوم بتطبيق الحدود وفقاً لقراءة النصوص أو ما تم اقتباسه منها، ويتضرر منها الفقراء والنساء فقط. الحكومات تعرف أن جزءاً من الشعب يتعاطف مع تطبيق القوانين الإسلامية، لذا فهم يستغلون ذلك لتبرير حكمهم الاستبدادي وسلطتهم القمعية، إن الحكم بالإعدام، والحدود، والرجم (الذي لا يخصّ المرأة وحدها وفقاً لما جاء في النصوص) يتم تطبيقها في العالم الإسلامي أمام أعين الجميع وبرغم أنفهم.

ما العمل لتغيير العقليات؟ هل يجب التنديد بالمراجع المكتوبة وتحمل تجاهل العالم الإسلامي؟ أو فرض رأي عصري فيتّهمونك (بالانتماء إلى الغرب)؟ وأكثر من ذلك؛ إذ يذهبون إلى اتهامك بأنك عميل للعدو، هل يجب إسماع صوتنا إلى الغرب وفقدان إصغاء العالم الإسلامي لنا؟ أو التحلي بتطورنا والابتعاد عن لعب أي دور في عالم يسوده القمع والشرعية الدينية المنافقة؟ ما هو الدور الذي يجب أن نلعبه من الغرب؟ وماذا يمكن لنا إضافته؟

التجربة المغربية التي أشرنا إليها قبل قليل جديرة بالتفكير فيها: الطريق الوحيد الذي يجب سلوكه هو الحوار من الدّاخل والاعتماد على إجماع المسلمين أولاً.

إن أغلب العلماء المسلمين باستثناء البعض منهم، متفقون على أن تطبيق عمليات الحدّ اليوم أصبح غير شرعي ولا يتماشى العدالة التي وردت في رسالة الإسلام.

فلنأخذ بهذا الإجماع في الاعتبار ونطالب (بمنح مهلة مطلقة) وعدم تطبيقها (أتكلم هنا عن كل الحدود بما فيها الإعدام) والدعوة إلى عقد مؤتمر في العالم الإسلامي بخصوص الآيات والفصول التي وردت فيها القوانين الخاصة بتطبيق هذه الحدود.

لنتوقف عن قبول ما تردّده بعض السلطات، التي نست أو تحاول أن تتلاعب بالإشارة إلى شروط القانون الإسلامي، وتستمر في اضطهاد شعوبها، لنطلب إذاً (بمنح مهلة) قبل تنفيذ الحدّ لإيقاف

obeikan.com

عمليات القمع، لفتح ندوة والمطالبة بإيقاف تطبيق الحدود لأن شروط تطبيقها الواردة في النصوص تجعلها غير قابلة للتطبيق على الواقع، مثل المدوّنة بالمغرب.

يبدو لي أن الحل الوحيد لنخطو خطوة إلى الأمام هو النقاش والبيداغوجية من الداخل وعدم التواري خلف البلاغات المعسولة للمبادئ التي نصدرها من الغرب، والاكتفاء بالصّمت تواطؤاً مع الدول الإسلامية التي نزورها وخاصة دول الخليج الغنية بالبترول.

لست على استعداد لهذا التصرف، وسوف أبقى منفرداً برأيي ومتمسكاً بالبيداغوجية في الغرب (حتى لو كلفني ذلك اتهام البعض لي بالغموض؛ لأن الكثير ممن يواجهونني لا يريدون المشاركة في منطق الآخر ويخلطون بين الوضوح والبساطة)، وفي الشرق أيضاً (سوف أواجه انتقادات الدكتاتوريات واتهامي بالولاء إلى الغرب من طرف التقليديين والمتطرفين على حد سواء.

أعتقد أن مسيرتي مستقبلاً سوف تكون مع كل من يقبل اللا مركزية الدينية، والثقافية، والبسيكولوجية وكل من هو على استعداد لمواجهة الانتقادات الموجهة لنا في الشرق والغرب.

* مسؤولية المسلمين

لا زلت أكرر منذ سنوات، أن مسؤولية المسلمين كبيرة جداً.. يجب أن يرفضوا الانهزامية، والدفاع عن النفس وترك العزلة الجماعية

أو الاجتماعية، إذاً كانت ردود الفعل ضدهم عنيفة لأنهم خرجوا من مساكنهم البائسة ليقولوا كلمتهم ويُسْمِعوا أصواتهم، فالضجة الإعلامية، والمناقشات السياسية المتأججة، وظهور العنصرية في ثوب جديد، وولادة الإسلام الفرنسي، كل هذه العوامل تجبر المسلمين على الانطواء على أنفسهم، والتقليل من شأنهم، أو الاختفاء أو مطالبة الآخر ما يرضيه وما يريد أن يقول له ليصبح عربياً (طيباً) ومسلماً (لطيفاً)... البعض قرر التسلح بالسياسة.

في فرنسة، الحزب الاشتراكي له أنصار في (SOS) أو في جمعية (لا عاهرات ولا مستسلمات)، بعض العرب انخرطوا في (المجلس الفرنسي للتعبّد الإسلامي) والمستشارون العامون، لكل حزب ولكل جمعية أنصاره، وإستراتيجيته ومنتخبوه، لكن عندما تقام الاحتفالات والاستعراضات السياسية والرمزية لا يبقى إلا الواقع: التنديد بالدين، والسكنات البائسة، والتفرقة العنصرية، والطرد، والعنف، والعذاب.

هل يمكن التطلع إلى غير ذلك؟

المستقبل سوف يكون لهؤلاء المواطنين المزعجين، نساءً ورجالاً.. فهم أحرار ويطالبون باستقلاليتهم وحقهم في التكلّم في أي مكان، وأمام أي كان، التكلم في أي موضوع يخص المجتمع.

النساء يرفضن التفرقة التي تنتشر باسم الإسلام، تحررت أغلبهن من قيود الوالدين والإخوة وحتى من ثقافتهن، ولكنهن مع ذلك يرفضن أن يفرض عليهن الاندماج الأعمى... محجبات أو غير محجّبات كلهن

متضامنات ويعملن اليد في اليد، وينخرطن في جمعيات نسائية أو اجتماعية ويطالبن بالإصغاء إليهن، إليهنّ مباشرة دون وسيط، الأبيض منهم بالخصوص، الفرنسي أو الفرنسية الأصل، لقد اقتحمت المرأة الميدان وأصبحت تزاحم الآخرين وتستجوب.. ليس من عادتهن، لذا يجب الإصغاء إليهن لأنهن من الآن فصاعداً سوف يتفتّحن أكثر فأكثر ويقتحمن الميدان ويعبّرن عن كيانهنّ أكثر فأكثر.

حتى المواطنون الفرنسيون المسلمون (المزاولون لشعائرهم أو غير المزاولين الذين غالباً ما يردّون إلى أصولهم، وثقافتهم ودينهم) أصبحوا يتكلمون لإسماع أصواتهم وأصوات من يساندهم من المجتمع المدني، إنهم لا يزالون يرفضون إجراء التحاليل داخل المجتمع الفرنسي، ولكنهم بدؤوا يشاركون في التظاهرات المناهضة لحرب العراق (مع الغالبية الفرنسية لمساندة موقف الحكومة) حتى داخل الندوة الاجتماعية الأوروبية، وداخل التظاهرات المحلية.. كل هذه دلائل تبشّر بالتغيير العميق الذي سيحدث في طبيعة ونوعية الحضور المسلم في الغرب: على هؤلاء إرساء الثقة بإلقاء خطب واضحة والالتزام الإيجابي في المقاومة الوطنية أو العالمية لتحقيق العدل والدفاع عن الحق دون تحيّز ودون انتقاء.

إن سوء التفاهم باق ولا يختفي بين عشية وضحاها.. طريق الثقة المتبادلة لا يزال طويلاً، وصعباً، وملزماً، ومزروعاً بالمصادمات والجروح، ولكنه لا يقبل اللّف والدوران، غير أنه الطريق السليم لأنه يفرض علينا التواضع والإصغاء إلى الآخرين.

obeikan.com

منذ أن كتبت المقال (المثقفون الجماعيون الجدد) لم يتوقف ضغط وسائل الإعلام عليّ مدة أربعة أشهر، لم تتوقف المقالات، والرسوم المسيئة، والتحقيقات، والندوات التلفازية.. كلها أصبحت مجنّدة لمحاربتي... اتهامي بمعاداتي للسامية غير شرعي، ومن الواضح أنه ليست هناك (قائمة) بأسماء من وجهوا إليّ الاتهام (لو حصل ذلك لسارعت الجمعيات المدافعة عن السّامية بتقديم شكوى إلى العدالة، لكن ذلك لم يحصل)، لذا فقد قاموا بتغيير وجهتهم: أخذوا يبحثون من جهة جدّي، وأخي، ونسبي أيضاً، واللاّ وعي العائلي، وعلاقاتي المفتعلة وخطابي -ذي الوجهين- كانت هناك زوبعة كبيرة أثارتها وسائل الإعلام ونسجت منها ما يسمونه بـ(القضية)، قضية طارق رمضان، فالتشنّج أصبح ملموساً والعقول ملتهبة، والانفعالات في أشدّها، راح كل واحد يفرز ما يشاء من انتقادات سامة تجاه مواقفي، تجاه كتبي، والتزاماتي في الميدان وتم فرزها بدقة وعناية، فما الفائدة من القراءة، وما الغرض من الإصغاء... وخيّم الصمت كالمعتاد، الكل شارك في هذه الحرب الإعلامية، والكل متأكد من ازدواجيتي وازدواجية خطابي.

هناك من تم استجوابهم فتمهّلوا وقرؤوا وناقشوا، لكن الانفعال الذي خيم على النقاش حول الإسلام أعمى الأبصار والعقول، وتفتحت الأبصار والعقول من جديد لرفض الادعاء السّاحر، والكاريكاتورات والأحكام المستعجلة... رفضوا الإصغاء لكل من يصرخ بقدوم الخطر وله أطماع سياسية خفية وغير شريفة.

لقد فهموا أن المشكلة أعمق مما يتصوّرون، ومعقّدة وتمس المجتمع الفرنسي بكامله، الواقع الفرنسي الحساس: فاليوم أو غداً، السؤال المطروح هو الآتي: هل الفرنسيون على استعداد لقبول أن المجتمع الفرنسي تغيّر وأن المواطنين (من أصول مهاجرة) (ذوي الديانة الإسلامية) لهم الحقوق نفسها مثلهم، في الاحترام، وحرية الكلام، والعدالة والشرف، وفي الحقوق الأساسية والثقة. في عصر انعدام الثقة وإنكار الحقوق وجريمة سوء الطالع.

سوف يشهد التاريخ أن من قاوم البارحة فهو شرف فرنسة اليوم، وكذلك فالمواطن الجديد الذي يتمتع بالحرية اليوم، ويطالب بحقوقه على الرغم من الانتقادات والرفض، سوف يكون شرف فرنسة التعدديّة غداً.

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة

* هل يمكن الجهاد في سبيل الله

يجب الإقدام على مواجهة العلاقة بين الإسلام والمجتمع الغربي؛ لأن هذه العلاقة كانت سيئة في الماضي وازدادت سوءاً في السنوات الأخيرة.

فالإسلام الذي يعد ديناً وثقافة، يواجه هذا الكيان الغامض ألا وهو المجتمع الغربي الذي يتردّد البعض في تسميته المجتمع المسيحي، بعد أن اعتنق العلمانية وارتمى في أحضان الدنيوية حتى أصبح الدّين لا مكان له في هذا المجتمع الجديد ، وليس له أي دور يلعبه فيه.

فالثقة معدومة والحذر هو الفاصل بينهما، ولا يتردد أحدهما في اللجوء إلى العنف للتعبير عن خوفه من الآخر.

لننطلق من مواجهة حديثة عشناها هذه الأيام، كل طرف من أطراف هذه المواجهة تصرف بسوء، متجاهلاً مبادئه بدعوى أنه يدافع عنها.

حصلت هذه المواجهة سنة 1998م عند الهجوم على سفارة أمريكة بنيروبي ودار السّلام، وما تبعها من ردة فعل تجاه أفغانستان والسودان، دولتان لا علاقة لهما بعمليات التفجير، لقد قامت أمريكة بمعاقبة جماعية للسودان وأفغانستان والغاية منها استهداف الإسلام ككل.

كل طرف من الأطراف المواجهة تنكّر لمبادئه، فالإرهابيون المسلمون قاموا بمهاجمة أبرياء لا ذنب لهم فيما حصل، تم هذا الاعتداء السافر باسم القرآن والقرآن براء منهم؛ لأن هذا العمل يتنافى مع التعاليم الإسلامية، على الرغم من أن بعض الدول الإسلامية تعد هجوم أمريكة على السودان وأفغانستان يستهدفها أيضاً... فلا داعي للتهجّم على السياسيين؛ لأن ذلك فيه خرق للقانون الدولي ويتجاوز الحق في الدفاع عن النفس، للعلم أن الضحايا كلهم أفارقة أبرياء، وأغلبهم لا علاقة لهم بالمواجهة بين المتنازعين؛ لأنهم أفارقة بالطبع وربما كان البعض منهم مسلمين.

من جهة أخرى، فالقوات الجوية الأمريكية هاجمت هي الأخرى أبرياء أفغانيين وسودانيين، هاجمت دولتين ذنبهما الوحيد هو الانتماء إلى الإسلام.

دولتان ترفضان الهيمنة الأمريكية على المنطقة، وترفضان الحضارة الغربية المستوردة التي تفنّنت بها دول إسلامية أخرى، قامت البحرية الأمريكية بإطلاق ثمانين صاروخاً على أهداف وهمية، تكلفة هذه الصواريخ ستون مليون دولار، كيف تطلق هذه الصواريخ على دول فقيرة؟ فهذه جريمة تصرخ مستنجدة بالسماء للثّأر لها، ألم يكن من الأفضل استغلال هذه المبالغ لإطعام الجياع في السودان ومحو الأمية في أفغانستان؟ لقد قامت الولايات المتحدة بخرق القانون الدولي مع أنها تدّعي أنها النموذج الأعلى للدفاع عن الحرية في العالم، لقد دخلوا في حرب مع دول لا تنتمي إلى النزاع أصلاً.

مع كل ذلك، هذه الحادثة لم تكن الأخيرة، كل شيء مؤقت دون شك.

فما هي إلا جزء من سلسلة أحداث العنف، فالأحداث الكبرى ضربت لبنان وأفغانستان والبوسنة وكوسوفو والعراق وفي كل مرة كانت المواجهة بين المسيحية والإسلام، لا يمكن السكوت على اضطهاد الأقلية المسيحية أيضاً، في السودان وباكستان وإندونيسية والفلبين، وتجدر الإشارة أيضاً بالتذكير بما حصل في الجزائر من قتل لمجموعة من الرهبان الأوروبيين (قتلت راهبتان وخمسةُ رهبانٍ سنة 1994م، وقتلت خمس راهبات سنة 1995م كما قتل سبعة آخرون ومطران وهران)، كل هذه الأعمال فضحت الجماعات الإسلامية المسلحة وأظهرت ضعف الحكومة الجزائرية في تأمين الأمن الداخلي، يا للأسف فالضحايا الجزائريون فاق عددهم كل التوقّعات: لقد أصبح من المألوف أن نسمع أن قرية بكاملها محاصرة من عناصر الجماعات الإسلامية المسلحة، وأن العديد من الأبرياء العزّل تم ذبحهم دون أي ذنب، والغرض من كل هذا هو زرع الفوضى والرعب في نفوس الشعب.

لقد انتشر العنف في كل مكان، حتى في الغرب، فالكاتب سلمان رشدي صدرت في حقه فتوى إيرانية تبيح قتله ومكافأة من يقتله.

في سنة 1993م قامت مجموعة إرهابية بمهاجمة المركز التجاري العالمي بنيويوك أسفر عن قتل 3 أشخاص: الغرض من هذه العملية هو تدمير أكبر وأعلى مركز تجاري في العالم، أثناء عيد المسيح سنة 1994، تم خطف طائرة فرنسية من طراز ايرباص، قتل ثلاثة من ركابها قبل

تدخل القوات الخاصة، وقُتل الإرهابيون في مطار مرسيليا أمام أنظار الفرنسيين المتشبثين بالشاشة الصغيرة لمتابعة ما يحصل، وفي سنة 1995 و1996 قام إرهابي جزائري بوضع باريس في حالة حصار مدة شهور، وفي 17 أغسطس من السنة نفسها حصل هجوم في شارع فريد لاند أسفر عن جرح سبعة عشر شخصاً، في 28 أغسطس كاد يحدث حادث رهيب ألا وهو خروج القطار السريع (تي جي في) المتجه من باريس إلى ليون عن السكة، وقد تم تجنب ذلك بأعجوبة فائقة، وفي 29 سبتمبر تم القضاء على إرهابي يدعى خالد قلال أمام أنظار المشاهدين على المباشر في كل شاشات التلفاز، في 6 أكتوبر حصل اعتداء على محطة البيت الأبيض للمتر وأسفر عن جرح 13 شخصاً.

وفي 3 ديسمبر من سنة 1996م انفجرت قنبلة في محطة (بور روايال) أثناء خروج الموظفين من عملهم، أسفرت عن جرح 82 شخصاً منهم إثنان على وشك الموت.

على أثر هذه الأحداث قامت دوريات من القوات الخاصة والمظليين بالانتشار في الأماكن الإستراتيجية عدة أشهر، حتى سلات القمامة تم إخفاؤها، وتم تعميم تفتيش حقائب النساء عند دخولهن للمحال التجارية، باريس أصبحت تعيش في حالة حصار كامل، يحدث هذا وكأن عنف الحرب الأهلية بالجزائر أراد أن ينقل العدوى وفرضها على المستعمر السّابق للجزائر الذي يتحمل مسؤولية كل ما يحدث في الجزائر منذ أكثر من قرن. ألبير كامو الكاتب المعروف الذي كان يسكن وهران، هو أحد مواطني هذا البلد مثله مثل المسلمين، تنبأ في

آخر كتابه (الطاعون) أنه سيأتي يوم تنطلق فيه الجرذان من المجاري لنشر الطاعون في المدن، لقد أحسن الكلام، لقد عادت الحروب الدينية إلى الواجهة وعادت الحروب الصّليبية وأعلن الجهاد.

حالة الشك التي يتخبط فيها المسلمون في أوروبة أقل مأساة لكنها خطيرة جداً، النزاعات التي شغلت المدارس الحكومية بسبب الحجاب تكاثرت وتفاقمت حتى اضطر وزير التربية إلى تعيين وسيطة لإيجاد حل لهذه القضية، الضحية الكبرى هو الشباب المسلم الذي يعاني من الإهمال والعزلة، بعد أن عجز عن الاندماج والانخراط في عالم العمل، الكثير منهم حولوا ضواحي المدن الكبرى إلى أراضٍ مطوّقة خارجة عن القانون حتى أصبحت وسائل المواصلات معدومة لأن السائقين يرفضون خدمة هذه المناطق التي لا تخضع إلا إلى قانون هؤلاء الشباب المتمرّدين على المجتمع.

كل شيء أصبح مصدر نزاع: بناء مسجد في الغرب مثلاً (ليس بالسهل على الرغم من كثرة المساجد بفرنسة وأوروبة) وعدم السماح للمسيحيين ببناء كنيسة في المملكة العربية السعودية، ومنع المسيحيين من شرب الكحول في بعض دول الخليج، ومطالبة المسلمين ببناء مقابر للمسلمين في أوروبة، ومشكلة أضحية العيد التي تتم خارج المسالخ الرسمية، كل هذه القضايا عزّزت موقف الأحزاب اليمينية المتطرفة وضاعفت من العنصرية تجاه المسلمين وزادت من مؤيدي هذه الأحزاب المعروفة بكرهها للأجانب: في فرنسة توجد أقليات مسلمة يتراوح عددها أكثر من أربعة ملايين، أغلبها تعيش في مساكن بائسة في ضواحي المدن

الكبرى، مما ولّد موجة من الخوف من هؤلاء المهاجرين الرافضين للاندماج، هم يهددون ثقافة البلد، وعاداتها وتقاليدها المتأصلة كما يهددون مؤسسات الجمهورية، أغلب هذه الأقلية المسلمة فرنسيون، فقد أصبحوا يواجهون الاضطهاد نفسه الذي واجهه البروتستانتت واليهود من قبلهم وحلوا محلهم.

الوضعية نفسها تنطبق على بلجيكة حيث فاز أحد الأحزاب النازية بـ 28% من الأصوات في مدينة انفرس بسبب برنامجه العنصري الذي لا يخفي كرهه للمسلمين واليهود، وكل الناطقين باللغة الفرنسية، وكل من لا ينتمي إلى العرق الجرماني ذي الشعر الأشقر والعيون الزرقاء، أما ألمانية فهي تتصرف بتحفظ حيال اندماج قرابة ثلاثة ملايين تركي وتسهيل تجنيسهم. وما هو تصرف سويسرة؟ سويسرة لها سياسة انتقائية حيال المهاجرين... فالباب مغلق أمام هجرة المسلمين، فعادتها هي حل المشكلات بعدم طرحها أصلاً.

لا داعي لإطالة القائمة... فالغرب يشعر أن الإسلام يهدده، وهذا الشعور متبادل بالطبع، كل الشروط اللازمة لتوليد النزاع متوافرة، ومتوافرة باستمرار، كل شيء يسير وكأن الحضارتين لا شيء لهما سوى التناقض والتعاتب والخشية المتبادلة.

أمام سوء التفاهم هذا، وأمام عدم الاعتراف بحقوق الآخر، وأمام الصورة السيّئة التي رسمت عن الأديان، فلابد من مساءلة العقيدة نفسها، ماذا تقول عقيدة الإسلام عن الإرهاب الأعمى؟ وماذا تقول عقيدة المسيحيين بخصوص هذا العنف المتبادل؟ وما هي علاقة العقيدة

الإسلامية والعقيدة المسيحية؟ وهل من الطبيعي أن تتناقض الديانتان حيال نُقاط أساسية، مما يولد التوتر والنزاع بين الطرفين؟

أليست هناك طريقة للتفاهم؟ هل من الطبيعي أن يتحارب طرفان يؤمنان بالله الواحد، وكل منهما يدّعي أنه إلهه هو ويخضع لإرادته ويحظى بمباركته في قتل الآخرين؟

* أسباب النزاع

هذا الكتاب هو خلاصة العقيدة الصادقة والإرادة الخالصة، فهو يتناول الطريق المعاكس لحالة الحذر والعداء المتواصل، يحاول أيضاً إرساء التفاهم والاحترام المتبادل بين الثقافتين المسيحية والإسلامية، المسيطرتين على السلطة في منطقة البحر الأبيض المتوسط، أرض الحضارات، التي ارتوت بكثير من الدموع والدماء، هذه الأرض هي منبع الحكمة والجنون في آن واحد. ولا ننسى الثقافة الثالثة، ثقافة اليهود التي تعد رحم ديانات التوحيد.

بما إن المواجهة هي مواجهة أديان لنتكلم عن هذه الأديان، ونتكلم بجدية

لنحاول الوصول إلى عمق هذه الأديان، إلى أبعد ما يمكن.

بعد انهيار الماركسية، أصبح الغرب المنتصر لا يخشى سوى تجاوزاته ولا يواجه أي تناقضات إلا تناقض الإسلام، فالإسلام دين وثقافة لا يتجزأان، ليس هناك عقبة بين ديانتين متنافستين ومتناقضتين، بل هناك مواجهة بين (الغرب الملحد الذي لا يؤمن إلا بالعقل والعلوم

والمال، دينه الاستهلاك المفرط، والتمتّع بالحياة، لذّة الحياة في الدنيا لا لذة الحياة في الآخرة التي لا يؤمن بها، مكتفياً بما يضمن بقاء وازدهار شركاته)، وبين الإسلام الذي بقي يؤمن بالرّب الواحد الأحد الذي يخاطب البشرية بوساطة الأنبياء والرّسل، وخاصة خاتمهم محمد ﷺ، المجتمعات الإسلامية لا زالت متمسكة بعقيدتها وتأخذها مأخذ الجد وتتمسك بها في حياتها اليومية ولا تتصور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية دون الرجوع إلى المنبع الأوحد، التعاليم المستمدة من الكتاب المقدّس القرآن الكريم.

تلك هي أسباب النزاع بين الطرفين، فالنزاع ليس نزاع أفراد، بين مسيحيين ومسلمين، بل نزاع عالمين، الواحد لا يؤمن بقيام القيامة والآخر أغلبه متمسك بعقيدته، لا يمكن تصور شروط أكثر من هذه لسوء تفاهم جوهري مثل هذا، في العالم الأول هناك اعتقاد أن أي عقيدة يعبر عنها جماعياً هي نوع من الهذيان... فهي مناورة من طرف الاكليروس، وهي من مخلفات الماضي، أما العالم الثاني فيجدون صعوبة في تصديق أن هناك من لا يؤمن بالله، ويتهمون الغرب أنه يريد إحداث ثورة في العالم وفرض عبادة الشيطان عليه، ثورة صريحة وحاقدة في الوقت نفسه.

* لا سلام بين الشعوب دون سلام بين الأديان

هذا الكتاب كما قلنا وليد العقيدة الصادقة والإرادة الخالصة لأنه يسلك الطريق الصحيح لا غيره، فالكاتبان مؤمنان ملتزمان،

لذا فالهوة سهلة العبور، كل واحد منهما يأخذ مأخذ الجدّ عقيدة الآخر، ويفهم أنه يجب الانطلاق من هذه العقيدة لفهم البشرية وسلوكها حتى الغريب منها، هذا هو الدين المحرك لهذا المشروع، المهم هو التقليل من سوء التفاهم، وتقويم كل ما يفرّق وكل ما يقرّب بين الطرفين وبوضوح.

أجمل أمنية للكاتبين هي استمرارية الصداقة التي جمعتهما لإنجاز هذا المشروع المشترك وانتشارها بين الناس.

يتمنى كل واحد أن يأتي اليوم الذي يتلاقى فيه أبناء إبراهيم جميعاً في القدس... يهود ومسيحيون ومسلمون للدفاع معاً وبأخوة عن كل ما يقرّبهم والاتحاد ضد كل ما يفرقهم ويهدّدهم، يشتركون مع الناس الطيّبين، أصحاب الضمير الطيب للدفاع عن معنى الحياة، عن العدل، وعن حقوق الإنسان، والمساواة والحوار، حينها، وحينها فقط... نتمسك بعقيدتنا الإلهية، التي تعلمنا الحب والتسامح، لا الكراهية والثأر.

obeikan.com